حوار
مع أمّ سعد

اعتبرها البعضُ بداية انتقال غسّان كنفاني إلى «الأدب الشعبي» - أي الأدب الذي يكتبه «الشعب» بنفسه بعيداً عن تنظيرات «المثقّفين» و«تشويهاتهم». واعتبرها البعضُ الآخر بدايةَ انجراف غسّان كنفاني إلى منزلق «الشعبويّة» التي تقدّس الجماهير فيما هي - أي الشعبويّة - تُلبس تلك الجماهيرَ مفاهيمَ المثقّف ذاته وتقذفُ بإحباطاته عليها. واعتبرها فريقٌ ثالث رمزاً للكفاح المسلّح الفلسطيني. وعدّها فريقٌ رابع بدايةً لليأس الفلسطيني من المشاريع المرحليّة وانفتاحاً نحو المجهول الأكثر بعثاً على اليأس.

ولم يكن ثمّة رادّ دون أن تحتشد في رأسي كلُّ هذه المتناقضات، وأنا أتوجّه - بصحبة العزيزة آني كنفاني - إلى بيت «أم سعد» الكائن في مخيّم برج البراجنة. وكان المخيمُ يقذف بأسئلة جديدة إلى رأسي كلّما انعطفنا من زقاق إلى آخر، وكلّما راحت «آني» تلقي بالسلام على أطفال المخيّم وشيوخه وفتياته وفتيانه.

على أريكة طويلة جلست أم سعد، وقد غطّت رأسها بمنديل أبيض. ووقفتْ - ببعض الصعوبة - لتسلّم عليّ وعلى آني ولتقبّلنا ولتدعوني بـ «ابنها». كان واحدٌ من أبنائها الذين يفوق عددهم العشرة جالساً معنا، وكان إلى جانبه طبيبُ أسنان يُتمّ المراحل الأخيرة من تركيب طاقم أسنان جديد لـ «أمّ سعد»، التي تربو اليوم على الخامسة والسبعين، كما حدست. «شو بدّكْ أحكي لك عن غسّان»؟ سألتْني. «ما في حكي ينقال، وأنا صرت إختيارة!». أجبت: «جرّبي يا أمّ سعد. أنا مش ح أسألك أيّ سؤال. أنتِ بتحكي، وأنا بكتب. وإذا تعبتِ، ابنك يكمّل!»

فقالت عيناها الزرقاوان وأخاديدها المتغضّنة ووشاحُها الأبيض:

كان اهتمام غسّان بالنّاس كبيراً جدّاً، ولم يخذل إنساناً أبداً، ويخيَّل إليَّ أنّه كان سيرحّب بعدوّه لو جاء إليه ليحدّثه أو ليقابله. وحين قلت له بعد أن طاردته الحكومة اللبنانيّة في المرّة الأولى «يا غسّان، انتبه على حالك، بدهم يقتلوك»، قال: «وحّدِي الله، يا أمّ حسين، يا أمّ سعد، أنا ما عملت ما أستحقّ أن يقتلوني لأجله».

* متى كان هذا؟

١٩٧١ أو ١٩٧٢. طاردته الشرطة من مكتب الهدف إلى بيته في الحازميّة. كانت «آني» في قبرص مع أولادها. كنت مع «نادر»(؟) فسمعنا الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً دقّاً على الباب. وإذا بغسّان أمام الباب، يرجف. «ما لك يا غسّان؟» لم يردّ. فتابعت «ما لك يا غسّان؟ حدا لاحقك؟ قال: «لا شيء». حطّ رأسه على المخدّة، ونام.

وحين طلع الصبح، اتّصل به غسّان تويني، وسمعت جدلاً على التلفون. كان غسّان يقول: «اشرب البحر وماءه، اللّي بيطلع بإيدك بيطلع...». وحين أغلق السمّاعة، قلت له: «شو القصّة؟ شو الحكي هذا؟ هل خرفت؟».

ومرّة، حبسته الدولة في بعبدا. فتحوا لي باب غرفته. كان نائماً. قلت له: «يا غسّان، قلت لك إنّك ستموت! تعالْ، اقعد معنا في المخيّم. هناك مئة بيت في المخيّم، ونخُطك في قلوبنا». قال: «يكفي يا أمّ سعد، لا تحكي. نحكي في وقت ثانٍ». قلت له: «شو هالحكومة اللّي بتطارد شخص وطني يبيع حياته من أجل وطنه فلسطين! أنت ستقتل نفسك وتيتّم أولادك كرمى لفلسطين». وحين خرج، ذهبت إليه وقلت له: «يا غسّان، رح تموت». قال: «خذوها لأمّ حسين رحلة صغيرة. خرفانة!» قلت: «لأ. أنا مش خرفانة. أنت ابني، وأنا أصحّيك.» ودُقّ الباب، فتحت، رأيت شحّاذة تقول «من مال الله». إلى جانبها رجل واقف قرب الأسانسير (المصعد). قلت لها: «الله يعطيك»، وأغلقتُ الباب. دقّت مرّة ثانية. ما فتحت. صرخ غسّان «افتحي، افتحي!». رأيتها، الشحّاذة والرجل الغريب مرّة أخرى. نظر الرجل إلى

أم سعد

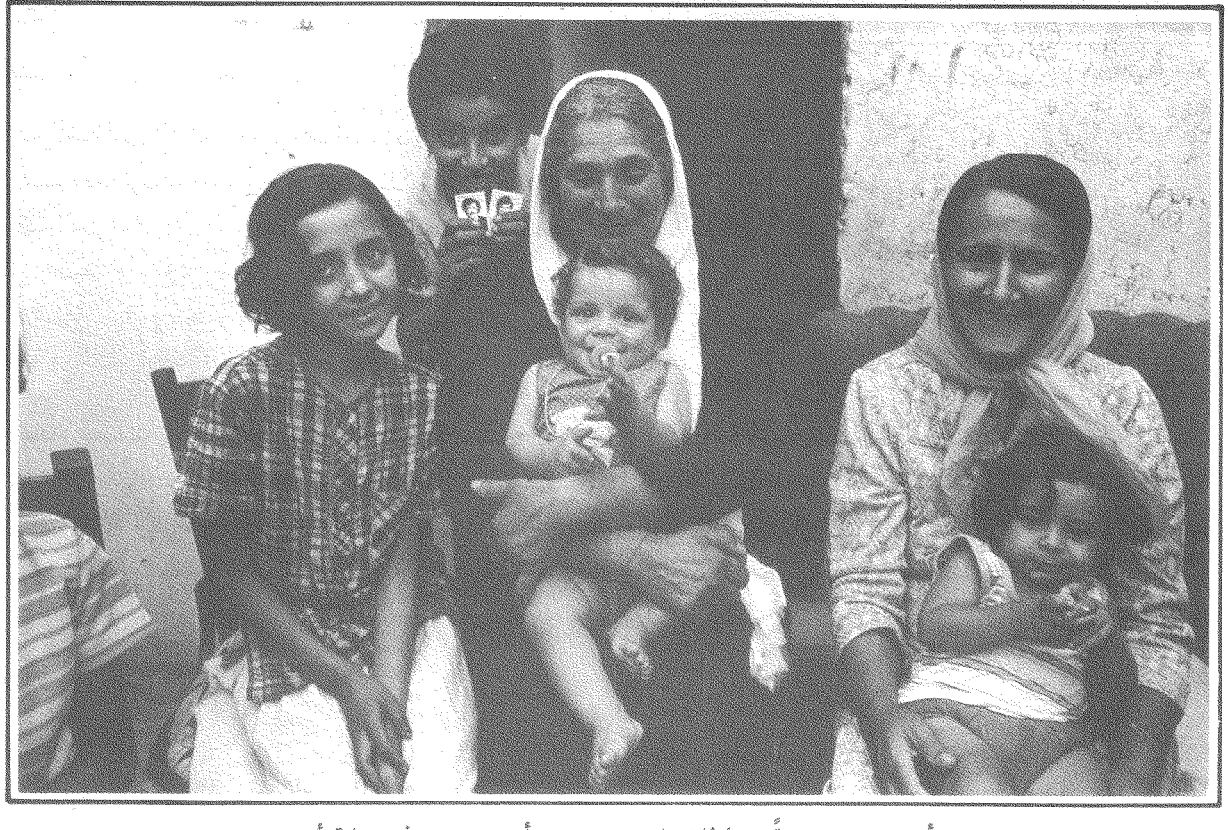

أم سعد، محتضنةً «سلطان» ابن «محسن» (أي «سعد» في رواية أم سعد)

البيت. قلت له: «ما لك عم تتطلّع؟» قال غسّان: «اتركي الناس بحالها. الله يساعدهم». قلت له: «الله لا يساعد حدا. الناس هول ما بينعطوا وِشْ. مش شايف الغضب بعين الرجل»؟

* أفهم من هذا أنّك تعتقدين أنّه جاسوس؟

ـ الله أعلم. الله أعلم. طيّب الست كانت تشحذ. وهو شو كانْ عمْ يعمل؟

* وبعدين؟

ـ بعد أسبوعين أو ثلاثة، جاء شابّان وبنت. وقفوا تحت البناية وراحوا يتطلّعون. كنت أسقي الجنينة.

هنا تدخّل ابن أم سعد الذي كان جالساً معنا طَوال الوقت، وقال:

ـ لقد أخذوا صوراً للجنينة من الأعلى. لكن لا نستطيع أن نقول إنّهم «موساد» [المخابرات الاسرائيليّة] أو غير موساد. يتكلّمون العربية باتقان. لكن «بن غوريون» كان يقول نحن يجب أن نضرب الفكر، النظريّة التي وراء المقاومة والثورة. نحن الاسرائيليّين نستطيع أن نضع عشرة مدافع، لكن الفكر صعب أن نواجهه.

الثورة اليوم تهتمّ بالعلم، بالهندسة، بالمادّة، بالطبّ، وترسل الفلسطينيّين لتعلُّم هذه العلوم، لكنّها لا ترسلهم ليتزوّدوا بالفلسفة والأدب والفكر. الثورة أخطأت باتّجاهها إلى النواحي المادّية فقط.

* وبعدين شو صار يا أمّ سعد؟

ـ سألت الأشخاص الثلاثة: «شو بتعملوا هون»؟ قالوا: «نحن سوّاح». قلت: «معقول يوجد سوّاح هنا؟» تركت شغلي ولحقتهم، وحملت عصا. صرخوا: «لأ. لأ. نحن رايحين!». ذهبت إلى جارنا الكولونيل ناصيف وأخبرته بالحادثة. ثمّ قلت لغسّان ما رأيت. قال: «يلّلا! شباب يا أمّ سعد، وكانوا مارّين في طريق بيتنا. مش مشكلة!»

هذه الحادثة حصلت يوم الثلاثاء. جاء الشابّان والفتاة مرّة ثانية يوم السبت. كان غسّان ـ كعادته أيّام السبت ـ في بيروت. رأيتهم. ثمّ جاءوا يوم الثلاثاء مرّة ثالثة. صرخت فيهم. قالوا: «هذه هي الطريق الوحيدة اللّي ما فيها شوك وحجر»! ناديت على «أبو شحادة».

نهار السبت قتلوا غسّان!

* شو قال لك قبل ما يطلع بالسيّارة؟

ـ قال لي: «شوفي يا أمّ سعد. أسلّمك الجنينة، وأسلّمك آني والأولاد، انتبهي عليهم». نزل على السيّارة، لحقته لميس.

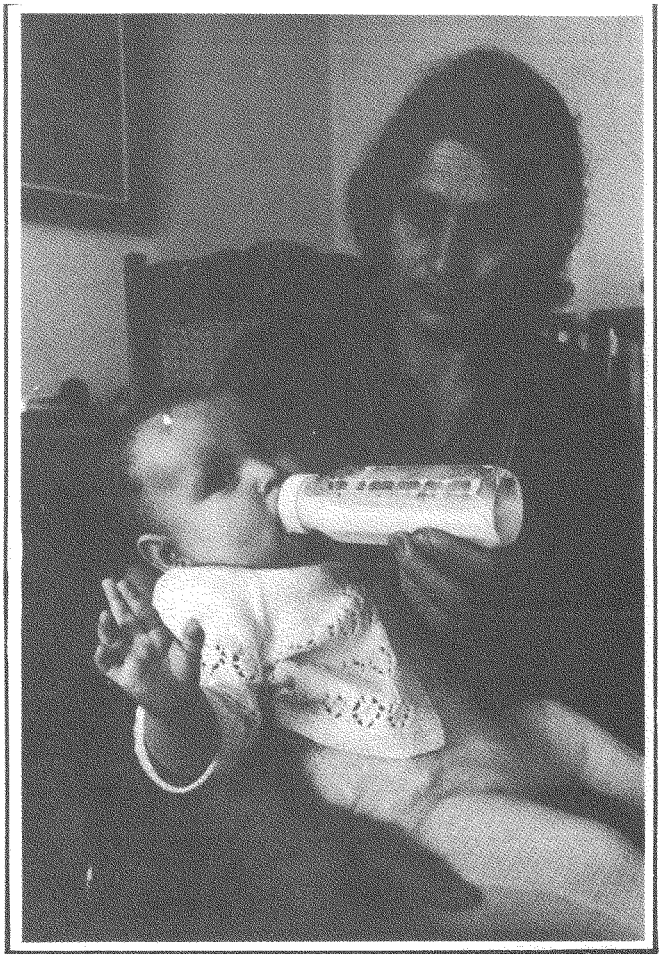

أم سعد، وليلى ابنة غسّان (١٩٦٧)

وسمعت الانفجار. ركضت. قلت لنفسي: «راح غسّان»! رأيت رجله [اليسرى] في قلب النار، ورجله [اليمنى] مرميّة هناك، يده اليمنى على الحائط تحتنا. جذعه محروق. قلبه كان قربه. رجل طويل عريض وضعته في كيس واحد! ليس قرب السيّارة، تنتفض في دمها مثل الدجاجة! صرخت «من شان الله ساعدوني على حمل البنت.»

ما ردّ أحد. كان الجميع يتطلّع فينا. وجاءت الحكومة. جاء ضابط بأربع نجوم. تقدّمت نحوه، وضربته بكلّ قوّتي، وصحت به: «يا ويلك من الله! تتفرّج على البنت. ما حرام عليك»؟!. لففتها بشرشف. لكن ما وجدت من يحملها. وجاءت الإسعاف وحملتها. لكن روحها طلعت قبل ما توصل المستشفى. قلت للضابط: «الرجل اللّي انت داعس على دمه بطل، زَلَمه [أي رجل قوي]، لا أحد مثله. كنّا نتمنّى أن يسيل دمه ولحمه في فلسطين لا في لبنان. ظللتم وراءه حتى قتلتوه».

كان قدّامي عشرات من رجال الحكومة. قلت «الحكومة قتلته أول مرّة، وثاني مرّة، وثالث مرّة. أنا قلت للكولونيل ناصيف عن

الشابّين والبنت الأسبوع الماضي، ولم يهتمّ. أين حكومتك يا كولونيل؟».

وجاء ضابط ثانٍ، منفوخ الصدر. ودعس ـ عن طريق الخطأ ـ على رجل غسّان. دفشته بكلّ قوّتي، وقلت له: «كلّكم خونة. غسّان ما خانكم. حكومتكم خائنة، خانت غسّان.»

يا ضيعانك يا غسّان كنفاني أن تموت هكذا. صحّيْتَك، ما رددت عليّ. يا ضيعان مَرتك صبيّة بأوّل عمرها، يا ضيعان أولادك.

ووقف أمام جثّته رجل اسمه جوزيف من راشيّا الفخّار. وقال: «يا ضيعانك يا خيِّر، يللّي ما خانقت حدا كلّ عمرك، يا بطل العروبة!»

* أمّ سعد، لاحظت أنّ الجميع ينادونك أمّ حسين. شو القصّة؟

ـ أنا أمّ حسين. وحسين قدّامك. أولادي من «الجبهة الشعبيّة ـ القيادة العامّة» [بزعامة السيِّد أحمد جبريل]. وغسّان من الجبهة الشعبيّة. وأنا ارتحت للجبهة الشعبيّة، وأنا والدكتور [جورج حبش، الأمين العام للجبهة الشعبيّة] متخاويين.

* شو يعني؟

ـ يعني أنا أناديه: «يا خيّي»، وهو يناديني: «يا أختي». (ضحك). النتيجة، غسّان كان يتفاءل بي، ولأجل هذا سمّاني أمّ سعد.

* أنت قرأت القصّة يا أمّ سعد؟

ـ أيّ قصّة؟

* قصّة أمّ سعد اللّي كتبها غسّان عنك.

ـ أولادي قرأوها.

* طيِّب. بالقصّة ـ مثل ما خبّروك أولادك بالتأكيد ـ غسّان يسأل وأنت بتردّي. وهو بيشعر بهزيمة ٦٧ وأنت بتحسّسيه أنّ الثورة ما انتهت بعد وأنّ الكفاح المسلّح طريق النصر. سؤالي لك يا أمّ سعد عن اليوم. كيف اليوم بتشوفي الوضع؟ هل الكفاح المسلّح هو الحلّ الوحيد للمشكلة الفلسطينيّة؟

ـ أنا رأيي هو التالي: ما أحلى الأيّام اللّي كنّا فيها نحمل السلاح وما نهاب. كان البحر لنا، والجنوب لنا. إذا ما كان بدنا الطريق على اليمين، ناخذ الطريق على الشمال، والطرق كلّها بتوصّل على فلسطين. ولا أحد يقول لنا: «وين رايحين ووين جايين». اليوم البحر لاسرائيل، والشريط الحدودي لاسرائيل. ونحن نتمنّى، بإذن الله، أن يهدأ بالنا ويصلح حالنا ونرجع على بلادنا.

بسْ نحن نظلّ نحارب؟ كلّ بلد لنا فيه شهداء. صار المحارب بيخاف: من هذه الجهة التنظيم الفلاني، ومن الجهة الثانية التنظيم العلاّني، ومن الجهة الثالثة قوّات الطوارئ الدوليّة، ومن الجهة الرابعة الحكومة. الفدائي صار يخاف. الله يهدّئ الحال ونرجع على بلادنا.

* كيف نرجع على بلادنا؟

هنا تدخّل ابنها حسين ليشرح السؤال: «يمّا. الشاب يسأل: أنت مع الحلّ السلمي، أو مع الناس تحمل السلاح وتحارب؟»

ـ واللهِ، يمّا، قلبناانكوى من الحرب.

* [حسين يقول]: لكن، يمّا، هذا الحكي أنتِ ما قلتِهِ لغسّان.

ـ بلى، قلته! قلتُه لغسّان.

[وهنا استطردت أمّ سعد تخبرنا عن عمليّة عسكريّة قام بها محسن، أي «سعد» في قصّة أمّ سعد، ضدّ الاسرائيليّين. وتحدّثت أكثر من خمس دقائق، دون أن أفهم صلة حديثها بسؤالي. وإذا بـ«حسين» يقاطعها مجدّداً ويقول]:

* يمّا، اسمعي. لو أنّ غسّان كنفاني كان ما يزال على قيد الحياة، وتطلّع وشاف الفلسطينيّين بالمَهاجر. شو كنتِ بتقولي لغسّان؟

ـ شو بدّي أقول له؟

* حسين: هل كنت تقولين له: نرضى بالحلّ السلمي، أو منحارب؟

ـ لأ. منحارب.

[تدخّلتُ لأسأل]:

* لكن يا أمّ سعد، قلتِ إنّ الحرب صعبة.

ـ عندما يكون الشعب الفلسطيني والشعب اللبناني والحكومة يداً واحدة، نطرد اسرائيل من الجنوب ومن فلسطين. الآن، ما يقدر الفدائي يمرّ!

* وضّحي لي ما كنت تقولين لغسّان؟

ـ كنت أقول له: نحن ـ الشباب والكبار والبنات والأطفال ـ لازم أن نحارب.

[وتدخّل ابنها عندما أحسّ أنّ أمه قد تعبت من الكلام، وقال إنّ غسّان كان يأتي إلى المخيَّم، ويتحدّث مع أمّ سعد بعفويّة عن الأوضاع اليوميّة والمعيشيّة على الساحة اللبنانيّة. وانتقل الحوار مؤقّتاً بيني وبين حسين]:

* هل كنت تعرف غسّان؟

ـ كنت صغيراً جدّاً. أذكر أنّني ذهبت إلى بيته، ورأيت في مكتبته كتاب «سوبرمان» أو «الوطواط» ـ المهمّ الكتاب كان لابنته أو ابنه. تطلّع فيّ غسّان وقال: «هذا الكتاب هو من اختيارك؟». وصار يقول لي إنّ الأدب والفلسفة من الأمور المهمّة. وأعطاني كتاباً اسمه

الفكر يوجّه البندقيّة. قلت له: «صعب أفهمه»!. كان عمري ١٣ سنة. وصار يحدّثني عن العِلم.

* ماذا قال لك؟

ـ قال لي: يجب أن تنظر إلى العلم من الناحية الروحيّة، لا المادّية. كنت آنذاك لا أعرف معنى كلامه.

* وهل تعرف اليوم؟

ـ والله، أظنّ أنّ قصدهُ هو أن أتعلّم لا لأجل نفسي فقط بل من أجل الغير. كان غسّان في «الجبهة» آنذاك. ولا تنسَ أنّ غسّان ترك **الأنوار** وأسّس **الهدف** مع أنّ أوضاعه الماديّة صارت أسوأ بسبب هذا الانتقال. هذه الجملة التي ذكرتها لك أتذكّرها جيّداً. وأنا لم أقعد مع غسّان كثيراً.

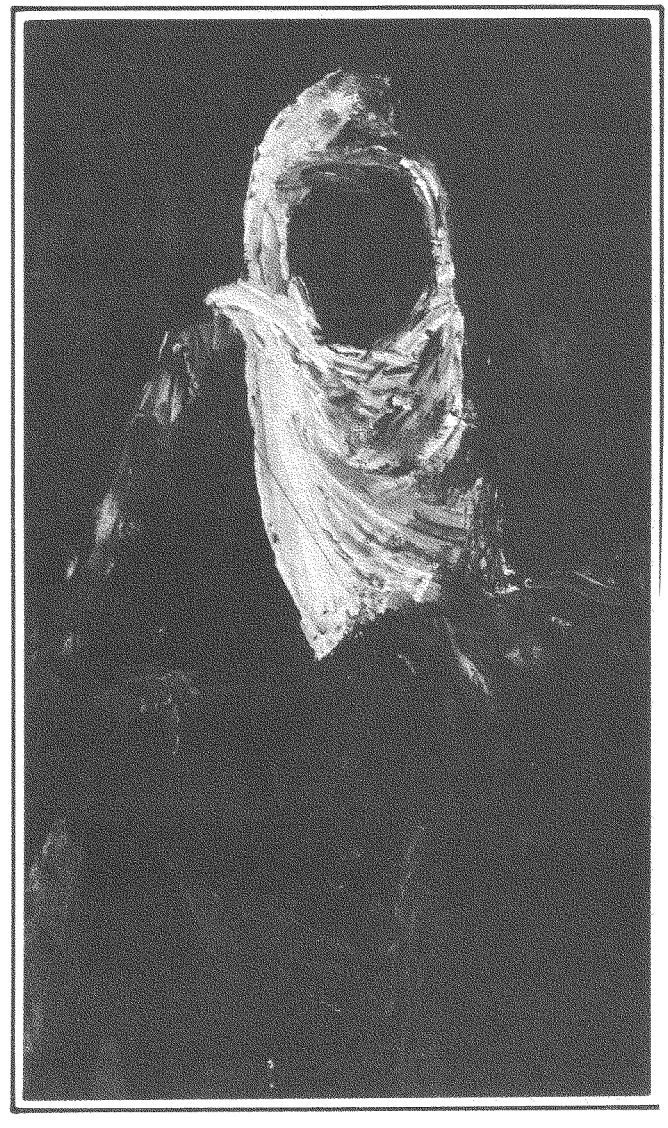

أم سعد، بريشة غسّان

* السبب؟

ـ كان مثقّفاً كبيراً. وكنت صغيراً. وما كنت أفهم عليه. كنت أتجنّبه: حين أراه قادماً في السيّارة أهرب، أو أتظاهر بالنوم. كنت أخجلُ منه.

[نظرتُ إلى أمّ سعد. كانت متحفّزة للكلام بعد طول انقطاع!]

* وأنت يا أمّ حسين، يا أمّ سعد. كان من الصعب أن يحكي غير المثقّف مع غسّان؟

ـ طبعاً. وكان يقول لي: «أنا ما يهمّني إلّا أن يكون الإنسان يحبّ التعلُّم ويعرف طريقه». فأقول له: «حتّى يروح مع الفدائيّين»؟ فيجيب: «تماماً». فأقول: «لا يا أخي، بدنا نعيش!» فيجيب: «هذه روح العصر، الثورة روح العصر والدنيا». فأقول له: «أيّام زمان كانت الثورة يُفتخر بها. والناس تنظر للمسلّح بالاحترام والغيرة. من زمان، كانت الثورة ثورة، والناس كانت تجيء لتتفرّج على الفدائي».

* شو يعني «من زمان»؟

ـ تتذكّر أنّ الجبهة الشعبيّة انفسخت عن بعضها البعض. وكان غسّان يجيبني: «أنت مخطئة. الثورة طريق فلسطين. فلسطين يا مجنونة! الثورة طريق الدنيا». وأنا كنت أجيب: «هذه طريقك، وأنت هيك!».

* إذن، أنت بتعتقدي أنّ الحياة يجب أن يعيشها الإنسان، لا أن يناضل كلّ الوقت ويحارب!؟

ـ كنت أعتقد هذا، ومازال! وخاصّة أنّ الثورة كانت ثورة والآن ما عادت ثورة! والوضع صار صعب. لكن الحلّ السلمي مش حلّ!

لواء الجليل والضفّة بلد واحد. أمّا أن نضع العلم الفلسطيني في القدس وننسى الجليل، فأنا لا أقبل بهذا الحلّ. نحن نريد الجليل والضفّة معاً. إذا قال أبو عمّار نريد الضفّة فقط، فإنّنا لا نريده ولا نريد الضفّة! لواء الجليل هو الذي أوقف الثورة على رجليْها. والشعب الفلسطيني في لبنان كلّه من الجليل.

الثورة حين تكون ثورة نحارب معها. كانت تحت الأرض، وصار جزء كبير منها مجرّد استعراض. الحلّ السلمي نحن ضدّه إذا لم يُرجع الجليل.

* بس يا أمّ سعد، ممكن أن يكون قَصْد أبو عمّار التالي: «الآن نأخذ الضفّة، وبعدين نأخذ الجليل»!

ـ لا. لا. أبو عمّار ما ذكر سيرة لواء الجليل.